

النكتة الشعبيّة ودورها في النقد السياسي

يحيى البشتاوي*

تعد النكتة ظاهرة اجتماعية تتحرّك على شكل موجات في ظروف فرضتها طبيعة الواقع المعيش، وهي تشكّل إفراناً لمشاعر ومواقف وأراء لا تدلّ على شخص صاحبها وغالباً ما تنشط في حالات الضغط الاجتماعي أو الإحساس بالقهر، ولا يُعرف كيف تكتب أصلاً، ومن أين تأتي، إلا أنها تعدّ أليّة من أليات الهزل والضحك، وهي وسيلة للتنفيس والتعبير عن المشاعر والأفكار المحرّمة والمكبوتة، وهناك دوافع تؤدي إلى تأليفها وإبداعها، وتمتاز النكتة بالتكثيف وإصابة الهدف المتوخى منها بأقل عدد من الكلمات، وتأتي غالباً باللهجة الدارجة، ومن أهمّ دوافع تأليفها الدافع السياسي، كإعدام الأمن والقهر والتفاوتات الاجتماعية والقمع المادي والمعنوي المسلط على حريّات التعبير والرأي، وإذا كانت النكتة تقتصر في بعض الأحيان على فئة محدودة، فإنّ تلك الفئة تحتضنها في لحظات كمنتفس لها عن الآلام التي تعصف بها.



الفنون الشعبية والنكتة هي أحد أنواع الفكاهة وأكثرها شيوعاً، والفكاهة تشمل معاني كثيرة من بينها: الإضحاك والمزاح والتندر والسخرية والإطراف بالكلام والتعجب والتلذذ، ولا يوجد تعريف موحد للنكتة في الأدبيات، ويمكن إجمال التعريفات الخاصة بالنكتة بما يأتي:

- هي نشاط لفظي شفهي إرادي يقصد من ورائه إحداث أثر سار لدى المتلقي له (١).. هي تعبير عن رغبة وتنفيس عن شعور مكبوت وتفريغ

رئيسة عند المجتمعات التي تعاني من الكبت، ولا يمكن التحكم في مصدر صناعتها، ولا ضبط إيقاعها ولا حتى إيقاف رواجها كتعبير يشكّل في حقيقته عملاً درامياً مستقلاً بذاته، له تركيبة أدبية وجمالية مضغوطة ومكثفة، تعمل على إفران مشاعر ومواقف وآراء سلسلة وواعية.

انفعالي بخصوص مسألة استعصى على الذات الإنسانية حلها (٢).

-هي كالشعر والأدب والموسيقى والرسم والنحت: فنّ تعبيري فيه من الأبعاد والشفافية والجمالية ما يرفعه إلى مصاف هذه الفنون (٣).

ويضهم من ذلك أنّ النكتة قد شكّلت وسيلة تعبير

*باحث وأكاديمي أردني

قسموا النكت إلى: نكت فكاهية، ونكت ساخرة، والنكتة الفكاهية هي التي لا هدف لها سوى الإضحاك، وهي لا تحمل في طياتها مغزى أو هدفاً أو رسالة يفهمها المتلقي أو السامع من أجل الحصول على المعظة، وإنما هدفها الإضحاك فقط وإشاعة المرح بهدف الترويح عن النفس. أما النكتة الساخرة، فهي نكتة معبرة بدقّة عن موضوع معين مهما كانت طبيعته، حيث تعبّر عن قضية بطريقة ساخرة تهكمية، وهذه النكتة "لها غرض هادف واضح سواء أكان معيّناً أم غير معين حين إلقاء النكتة وهو السخرية" (٦). فعند سماعها تصل الرسالة الخفية لذهن المتلقي، حيث تكون السخرية هنا ممزوجة بالهزاء؛ وذلك نتيجة لطبيعة أسلوبها اللاذع، وهي على الأغلب أكثر إضحاكاً من النكتة الفكاهية.

ومنذ بدايات ظهور النكتة الشعبية اقترنت وظيفتها في كثير من الأحيان بالتعبير عن مغزى سياسي يلامس مجريات الواقع وتداعياته ضمن سياقاته السلبية، فشكّلت النكت السياسية بذلك شكلاً آخر "من أشكال التعبير الجماعي عن هموم الجماعة بطريقة مجازية ساخرة فيها نوع من النقد للوضع السياسي والاجتماعي القائم، وهي تعكس معاناة المجتمع الكادح وغالباً ما تكون من إنتاج الطبقة الشعبية" (٧). والنكتة السياسية تزداد فعاليتها أثناء الأزمات وفي ظلّ الكبت للحريات فتستخدم الشعوب النكتة للتنفيس عما يدور في أذهانها ويعبر عن رأيها بطريقة غير مباشرة لا يستطيع منعها رقيب السلطة، وقد ساعد على انتشارها وسائل التواصل الاجتماعي وما يقدم من نكت عبر الفضائيات ومحطات التلفزة.

وقد قام بعض الباحثين بتحليل بنية النكتة لأجل فهم الأسباب التي تجعلها مثيرة للضحك، ومن بينهم فرويد الذي يرى أنّ تلك البنية تقوم على عدة مراحل من أهمها: التكثيف، حيث يتمّ دمج الأفكار والكلمات أو استخدام بعض المعاني المزدوجة والتوريات لأجل استثارة الضحك بالإضافة إلى ما أسماه بالإحلال والإبدال.

وذهب آخرون إلى أنّ النكتة تتكوّن من مرحلتين أساسيتين هما:

١- البدء بتكوين توقّع أولي لدى المتلقي وجذب انتباهه.

٢- إحداث الدهشة من خلال جزء في النكتة يخالف التوقّع المبدئي، الأمر الذي يثير الضحك لدى المستمع (٤).

أما عن أنواع النكت فهناك طرق كثيرة لتصنيفها، فقد تصنّف حسب موضوعاتها إلى نكت سياسية، وإدارية، واجتماعية، واقتصادية، ودينية، وجنسية، الخ. وقد تحتوي بعض النكت على معانٍ وأفكار عديدة فتصبح نكتة سياسية واجتماعية وإدارية في الوقت نفسه. وقد تصنّف حسب مهنة وحرف أصحابها مثل النكت عن المحامين والأطباء والحدادين والنجارين والحلاقين وأصحاب المهن الأخرى، وهناك نكت تتناول الجنسيات وألوان البشرة والجماعات العرقية كتلك النكت التي تقال عن الأمريكيين والإنجليز والعرب والسود والبيض مثلاً. حيث تركز النكت على التحيّز ضد الأنوثة، وهناك تصنيف للنكت على أساس الجنس في كثير من المجتمعات نتيجة التأثير بالأعراف المجتمعية والصور النمطية السائدة.

وصنّف فرويد النكتة انطلاقاً من الدوافع إلى

نوعين رئيسيين هما:

١- النكات البريئة: وتعتمد حيكمتها على التلاعب بالكلمات والتوريات.

٢- النكات غير البريئة: وهي تعبّر عن الميول العدائية مثل النكت السياسية ونكت النقد الاجتماعي اللاذع أو تعبّر عن الميول والاتجاهات الجنسية (٥).

وذهب آخرون إلى أنّ أنواع النكتة ترتبط في حقيقتها بالجوانب الوظيفية التي تحقّقها، حيث



بجمع وتحليل النكت لمعرفة مضامينها، وبات العديد من زعماء العالم يتابعون النكتة، لاسيما السياسية منها، التي يرددوها الشارع، فمنهم من يعدها استطلاع رأي لسياسته ومواقفه وتصرفاته وعاداته ونمط حياته، وآخرون اعتبروها مؤشر صعود أو هبوط لشعبيتهم، فالجنرال (شارل ديغول) كان أكثر ما يزعجه هو أن النكتة السياسية أو الرسوم الكاريكاتورية لم تعد تعره أي اهتمام في أواخر حكمه. فقال: (لقد تدنّت شعبيتي في فرنسا، فأنا لا أرى نفسي في الرسوم الكاريكاتورية ولا أسمع اسمي في النكتة التي تنتقدني).

وقد امتد الاهتمام بالنكتة إلى تأسيس وحدات استخبارية خاصة لرصدها ودراستها، فقد كانت (هناك وحدة في رئاسة الجمهورية ووحدة في الاستخبارات المصرية أيام الرئيس جمال عبد الناصر مسؤولة عن رصد النكت لقراءة ما يفكر فيه الناس) (9)، وفي هذا السياق تم جمع النكت التي ابتلى بها الرئيس عبد الناصر بعد هزيمة 1967م والتي تحمل في تفاصيلها سيلاً من النقد اللاذع، حتى اضطر إلى إشارة ظاهرة النكتة في إحدى خطبه المشهورة، ولم يطلب من الشعب المصري أن يكف عن التنكيت، لأن هذا من قبيل المستحيل، بل ناشده أن يتقي الله في نفسه وأن يطلق النكتة بما لا يؤدي الشعور الوطني.

وتستخدم النكت أحياناً في الحرب النفسية لأجل نشر روح الكراهية والفرقة بين أبناء الوطن الواحد أو لتبنيط همّة الخصم أثناء الحروب، وتقوم إسرائيل بهذا الدور أثناء بعض الحروب والأزمات، وقد استخدمت سلاح النكتة غير مرّة ضد الدول العربية، ونشرت ما تشاء من النكت العدائية، ومن ذلك ما فعلته بعد نكسة يونيو 1967، ومن الجدير بالذكر أن هناك سفارات داخل الدول تركز أغلب وقتها لصياغة النكت كوسيلة من وسائل الحرب النفسية بأساليب عنصرية وطائفية من أجل بث روح الكراهية بين أبناء الوطن الواحد، وبعض تلك السفارات تضم (مجلس نكتة) يعتمد على صياغة النكت ونشرها داخل المجتمع الذي تكون فيه، ولا يقتصر ابتكار النكت على السفارات فقط، بل هناك أحزاب ومنظمات مناوئة لحكومة البلد لها علاقات بأطراف خارجية، تمارس العمل ذاته وتقوم ببثها في المجتمع من أجل مصالح وأغراض لإصابة المواطنين بالإحباط وفقدان الثقة بالحكومة وتكريس الفتن (10)، ويلاحظ أن بعض النكت

إن النكت السياسية تنقسم إلى "نكت إيجابية ونكت سلبية"، لكنّها تشترك جميعها في كونها تعبّر عن قضايا المجتمع، مثل عدم الاهتمام بمطالب المواطن وغلاء الأسعار والبطالة وضعف الرواتب وتدني مستوى التعليم والخدمات الصحية وانتشار الفساد بكل أشكاله وكبت الحريات والغش في الانتخابات الرئاسية والبرلمانية فضلاً عن التنكيت حول بعض القضايا القومية مثل قضايا الصراع العربي الإسرائيلي والرضوخ للهيمنة الأمريكية، ومن الملاحظ أن هناك علاقة طردية بين النكتة السياسية وحرية التعبير والرأي، فكلما ضاقت مساحة التعبير في المجتمع ازداد انتشار النكتة وتداولها، بل وزادت كمية السخرية في محتواها لتصبح كوميدياً سوداء، إذ إن سياسة الدولة وقراراتها ورموزها تشكل موضوعات أساسية للنكتة، وقد وجد أفراد الشعب في النكتة والتنكيت وسيلة وسلاحاً فعالاً للتعبير عن الآراء والمواقف التي لا يقوون على الجهر بها، وبذلك فقد شكلت سلاحاً يشهره الضعيف ضدّ القوي، والأقلية ضد الأغلبية، وغالباً ما تكون الإساءة فيها ظاهرة دون معرفة مصدرها أو صاحبها، وقد تنتقل من عصر إلى عصر للغاية والأسباب ذاتها، فهناك نكت أطلقت على القادة العرب والحكام المستبدين، كما أن هناك نكتاً أطلقت على هتلر وموسولوني وستالين، هي نفسها التي ظهرت في لغات أخرى بعد اقتباسها لجعل أبطالها من طغاة البلاد والمستبدين.

لقد دخلت النكتة في محاولات رصد طبيعة العلاقة بين الشعوب والأنظمة السياسية التي تحكمها، فقد "قاوم عبد الله النديم سنة 1881م الاحتلال الأجنبي لمصر بواسطة النكت وأصدر مجلة (التنكيت والتبكيث)" (8)، ونتيجة لشيوع النكتة السياسية التي ركزت على النقد الاجتماعي للنظم السياسية، وتقاعسها في تدبير الشأن العام وعدم كفاءة القائمين على أمور المواطن وأهليتهم، فقد عرضت النكتة ضمن قالب فكاهي مواطن الخلل ومواضع الاختلال في المجتمعات، فما كان من الساسة والحكام إلا أن اتخذوا من النكتة وسيلة لرصد المزاج الشعبي، ومعرفة مستوى وعيه وهنا تكمن الظرفية الاخلاقية للنكتة، لذلك فقد اهتمت بعض الأنظمة

وقد أورد (حمودة) عددا من النكت السياسية التي عبرت عن الموقف الشعبي المصري من السلطة، ومن بين النكت التي أوردها أن الرئيس عبد الناصر في اجتماع لمجلس قيادة الثورة سأل: أين الدكتور "فلان"، وانتهى الأمر هنا .. ونسى عبد الناصر الأمر، إلا أنه بعد عدة أشهر .. عاد ليسأل عن الرجل مرة أخرى، فقالوا له: تمام يا افندم قبضنا عليه واعترف وأعدمناه. وهناك نكتة شهيرة أخرى ظهرت أيام عبد الناصر أيضاً، وتتناول أزمة الأرز، وتحكي أن رجلا من القاهرة عرف أن الرز متوافر في الإسكندرية فسافر إليها بالقطار كي يشتريه وفي القطار سأله الكمساري: مسافرين وليه؟ فأجاب الرجل مسافر اسكندرية عشان أشتري الرز، ولما وصل القطار إلى طنطا - وتبعد عن الإسكندرية حوالي 100 كم، قال له الكمساري: انزل هنا. فقال الرجل: طيب ليه واحنا لسه موصلناش اسكندرية؟ فقال الكمساري: مش انت رايح اسكندرية عشان تشتري رز؟. فأجاب الرجل: أيوه. فقال الكمساري: طب انزل، الطابور بيبدأ من هنا. وهذه النكتة ليست أصلا مصرية، وإنما بولندية وتحكي عن أزمة اللحوم، لكنها آلت (عبد الناصر) للغاية إلى درجة أنه طلب وزير التموين وأمره بتوفير الأرز بأيّة طريقة، وقد تم ذلك. ثم انتقل (حمودة) إلى أيام السادات، فبعد أن ظهرت الوعود بأن الرخاء سيعم بعد اتفاقية كامب ديفيد، جاءت زيارة (مناحيم بيغن) للقاهرة، حيث شاهد مع الرئيس السادات زحاما هائلا على أحد المجمعات الاستهلاكية، وشعر (السادات) بالخجل عندما سأله

السياسية لا يقتصر مجالها على السياسة فقط لكونها تحمل معاني متعددة يتناقلها الناس بمختلف شرائحهم الوظيفية والتعليمية والاقتصادية وهناك نكت أفسدت العلاقات بين الدول وتطلبت احتجاجا واعتذارا رسميين، كما وقع بين مصر وإسرائيل حينما دأبت الصحف المصرية على إطلاق "نتن يا هوه"، على رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، نتنياهو، ولم تعد تشير إليه إلا بهذا الاسم، مما دفع نتنياهو إلى تقديم احتجاج رسمي للدولة المصرية.

وقد ذهب الدارسون إلى أنه يمكن معرفة تاريخ البلد عن طريق الاطلاع على النكت الرائجة فيه، سيما التي تخص قاداته وشعبه وأحداثه، ومن أهم الدراسات تلك الدراسة الأكاديمية التي أطلقها الروس ضد ستالين، نشرت تحت عنوان "المنجل والمطرقة / تاريخ الشيوعية كما ترويها النكت"، حيث رأى أصحابها أنه من خلالها يمكن التعرف على تاريخ روسيا بواسطة نكتها، والتي تؤكد طبيعة الدكتاتورية الروسية في ذلك الوقت، فقد ورد في أحدها (أن البوليس أمسك أحد الرجال فسأله: من أمك؟ قال روسيا، ومن أبوك؟ قال ستالين. وما هي أميتك؟ أن أكون يتيما).

وذكر أن رئيس الوزراء البريطاني الأسبق وينستون تشرشل قد جاءته سيدة غاضبة من الغلاء قائلة: لو كنت زوجي لقدمت لك فنجان قهوة مسموما، فما كان من الداهية إلا أن قال: ولو كنت زوجتي لشربت الفنجان فوراً.

وهكذا فإن النكتة السياسية قد عبرت عن ممارسات النظم الشمولية، وقد اهتمت الشعوب العربية مبكرا بأثر النكتة السياسية على الإنسان العربي، وظهر ذلك عند المصريين قبل غيرهم من العرب، وقد ذهب عادل حمودة إلى أن مباحث أمن الدولة كانت تقوم بجمع النكات من خلال أجهزة تحليل وقياس الرأي العام، لا سيما النكت السياسية والتي تُعرض في تقرير أسبوعي على وزير الداخلية، ويقوم بعرضها على مجلس الوزراء (وزير الداخلية السابق) حسن أبو باشا.





عبد الله النديم الذي قاوم الاحتلال الأجنبي لمصر بواسطة النكت وأصدر مجلة "التنكيت والتبكيك"



الرئيس المصري الراحل أنور السادات

(بيجن) عن سر الزحام فقال: أبداً.. ده ماتم والزحمة دي للعزاء.. فاقترب (بيجن) من أحد الواقفين في الزحام وسأله: عزيزت؟.. فقال: لا ع السكر.. وفي نكتة أخرى أنه في سبتمبر ١٩٨١ أمر (السادات) باعتقال أكثر من ألف شخص من مختلف الأطياف السياسية مجرد معارضته، فوُلدت النكتة التالية والتي تقول إن (السادات) كان يمر بأحد الجموع عندما صرخ مواطن: عاش السادات موحد الأديان! فسأله الرئيس وقد أعجبه اللقب: ليه؟ فأجاب المواطن: لأنك كُفرت الجميع!. ولم يغفل حمودة إيراد عدد من النكت المصرية التي تناولت الهمم العربي، وكان من بينها أنه قد لوحظ أن أحد الزعماء العرب قام برسم خريطة فلسطين على ذراعه بالوشم وعندما سأله أحدهم عن السبب.. قال: حتى تبقى دائماً في بالي ولا أنسى القضية فبادرة الصحفي سائلاً: طيب ولورجعت فلسطين..؟ فقال الزعيم بسرعة: أقطع ذراعي (١١).

إن النكتة السياسية تطلق العنان للمكبوت والمسكوت عنه، حيث تعبر من خلال تعابير رمزية عن المخزون الثقافي والسياسي المجتمعي، لتشكل مرآة صادقة لما تحمله من قيم ومعتقدات وممارسات وتصرفات، وتكشف من جهة أخرى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، عن الجوانب الخفية للمجتمع سواء أكانت في شكل مواقف أم تطلعات أم رغبات مكبوتة، لتتحقق من خلال ذلك عدداً من الوظائف منها: التسليية والتواصل والنقد والمحافظة على التوازن الاجتماعي، كما يمكنها أن تسلط الضوء على مختلف التراتبات والصراعات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي تعيشها البلاد. إضافة إلى كشفها عن الوعي الشعبي المدرك للتصورات والمعتقدات، إنها مرآة للنسق الثقافي السائد بجميع سياقاته لاسيما القبيح منها، وذلك بهدف الكشف عن مواطن الخلل والضعف، وملامسة حقيقة الواقع.

الهوامش:

1. أنظر. عبد الحميد، شاكر، الفكاهة والضحك - رؤية جديدة، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2003 م، ص 387.
2. الإمارة، أسعد، النكتة والفكاهة ونمط الشخصية، موقع مجلة الحوار المتمدن، العدد 3174، بتاريخ 11/3/2010م.
3. الداموني، حسين علي لوباني، الملف السري للنكتة العربية، بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ط 1، 2005م، ص 272.
4. أنظر. عبد الحميد، شاكر، الفكاهة والضحك..، ص 394.
5. المصدر نفسه، ص 393.
6. برغسون، هنري، الضحك: بحث في دلالة المضحك، القاهرة: دار العلم للملايين، ط 3، 1983م، ص 72.
7. عمر عكاشة، تحليل النكت الساسية في ضوء تقنية الرمز والكتابة، منتدى اللسانيات، بتاريخ 8/25/2009م.
8. حميد، سلطان، آخر نكتة، ط 2، دن، 2004م، ص 25.
9. كامل، مجدي، أشهر النكت الساسية، دمشق: دار الكتاب العربي، ط 1، 2008، ص 14.
10. أنظر. المصدر نفسه، ص 6.
- أنظر. عبد الحميد، شاكر، الفكاهة والضحك..، ص 408 وما بعدها.
11. أنظر. حمودة، عادل، النكتة السياسية - كيف يسخر المصريون من حكامهم؟، القاهرة: الفرسان للنشر، 2008م.